

والمستغفرين بالأسحار، شهد الله أنه لا إله إلا هو، وقال كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب. فهذا وصف يزيد علي كل وصف، ويستغرق نعت الواصفين، ويجمع هذه المقامات السبعة من المراقبة والمشاهدة حالات عن مقامين، مدار المقامات كلها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما، فأحدهما الخوف عن مقام العلم، والحال الثاني الرجاء عن مقام العمل، فمن كان مقامه العلم بالله كان حاله الخوف منه، ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة له. ألم تسمع إلى قوله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقوله فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالانوار والجواهر

قال الله سبحانه تعالى ونفس وما سواها فالههما فجورها وتقواها، أى ألقى فيها وقذف فيها. وقال عز وجل ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه. وقال فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله. وقال تعالى من شر الوسواس الخناس الآية. وقال إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه. وقال تعالى استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. وقال سبحانه مخبراً عن العدو لأعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيديهم إلى آخر الآية. وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه: فقعد له بطريق الإسلام، فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر فتذر أرضك وسماك، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتتكح نساؤك ويقتسم مالك، فعصاه فجاهد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك فمات كان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة. وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم إلى آخر الآية. وروينا أن عثمان بن أبي العاص قال يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراعتي، فقال ذلك الشيطان يقال له خنزب، إذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتقل عن يسارك ثلاثا. قال ففعلت ذلك فأنهبه الله تعالى عنى.

وفى الخبر أن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعينوا بالله منه. وقد روينا أن الشيطان

يجرى من ابن آدم مجرى الدم. والحديث المشهور ما منكم من أحد إلا وله شيطان. قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال وأنا، إلا أن الله تعالى أعاننى عليه فأسلم. وقال ابن مسعود رضى الله عنه وقد رويانا من طريق مسند: فى القلب لمتان، لمة من الملك، إبعاد بالخير وتصديق بالحق، ولة من العدو، إبعاد بالشر، وتكذيب بالحق، ونهى عن الخير. ورويانا عن الحسن رحمه الله أنه قال إنما هما همتان يجولان فى القلب، هم من الله تعالى، وهم من عدوه، فرحم الله عبدا وقف عند همة، فما كان لله أمضاه، وما كان من عدوه يجاهده. وقال مجاهد فى قوله تعالى من شر الوسواس الخناس، قال هو منبسط على قلب الإنسان فإذا نكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه. وقال عكرمة الوسواس محل في الرجل فى فؤاده وعينيه، ومحل فى المرأة فى عينها إذا أقبلت، وفى عجيزتها إذا أدبرت. وقال جرير بن عبد العدى شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد فى صدرى من الوسوسة، فقال إنما مثل ذلك مثل النقب الذى تمر به اللصوص، فإن كان فيه شيء عاجزه وإلا مضوا وتركوه. وقد روى أبو صالح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى تملو قلبه، فهو الران الذى نكره الله تعالى، كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

ورويانا عن جعفر بن برقان قال سمعت ميمون بن مهران يقول إن العبد إذا أُنْبِ نُنْباً نَكَتَ فى قلبه بذلك نكتة سوداء، فإن تاب مُحِيتَ من قلبه، فترى قلب المؤمن مجلواً مثل المرأة، ما يأتى الشيطان من ناحية إلا أبصره. وأما الذى يتتابع فى الذنوب كلما أُنْبِ نَكَتَ فى قلبه نكتة سوداء، فلا يزال ينكت فى قلبه حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطان من حيث يأتى. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر فى تقسيمه القلوب. ورويانا عن أبى سعيد الخدرى وأبى كبشة الأنمارى يوبعضه أيضا عن حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: القلوب أربعة، قلب فى سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القبيح والصديد، فأتى المدتين غلبت عليه حكيم لها، وفى لفظ بعضهم غلبت عليه ذهب به. وقال الله تعالى ومن أحسن من الله قتيلا، إن الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان تنكروا فإذا هم مبصرون، فأخبر أن جلاء القلوب النكر، به يُبَصَّر القلب، وأن باب النكر التقوى، به يُنَكَّر العبد، فالتقوى باب الآخرة، كما أن الهوى باب الدنيا، وأمر الله تعالى بالنكر وأخبر أنه مفتاح التقوى

لأنه سبب الاتقاء، وهو الاجتناب والورع، فقال تعالى واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، وأخبر أنه أظهر البيان للتقوى في قوله كذلك يُبين الله آياته للناس لعلهم يتقون. وقال تعالى يا أيها الإنسان ما غرّك بريك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك. وقال تعالى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. وقال ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. فمن السواء والتعديل والازدواج والتقويم أدوات الظاهر وأعراض الباطن، وهي حواس الجسم والقلب، فأبوات الجسم هي الصفات الظاهرة، وأعراض القلب هي المعاني الباطنة، قد عدّلها الله تعالى بحكمته، وسوّاها على مشيئته، وقومها اتقاناً بصنّعه وإحكاماً بصنّعه، أولها النفس والروح وهما مكانان للقاء العدو والمَلَك، وهما شخصان مُلَقَّبان للفجور والتقوى، ومنها غرضان متمكنان في مكانين وهما العقل والهوى، عن حكمين في مشيئة حاكم وهما التوفيق والإغواء، ومنها نوران ساطعان في القلب عن تخصيص من رحمة راحم، وهما العلم والإيمان، فهذه أبوات القلب وحواسه ومعانيه الغائبة والآتية، والقلب في وسط هذه الأدوات كالمَلِك، وهذه جنوده تؤدي إليه، أو كالمراة المجلوبة، وهذه الآلة حوله، تظهر فيراها، ويقدر فيه فيجدها، فتفصيل ذلك على الإيجاز أن جُمِلَ الخواطر ستة هي حدود القلب وقوائمه، من ورائها خزائن الغيب وملكوت القدرة، وهي جنود الله تعالى، عتيدة وسلطان منه مبين، والقلب خزانة من خزائن الملكوت، قد أودعه مقبّه من لطائف الرغبات والرغبات، وشعشع فيه من أنوار العظمة والجبروت ما شاء، لأهل الرفيق الأعلى ونوى الملكوت الأدنى، فأوّل التفصيل خاطر النفس وخاطر العدو، وهذان لا يعدمهما عموم المؤمنين، وهما مذمومان محكوم لهما بالسوء، لا يُردّان إلاّ بالهوى وضد العلم. وخاطر الروح وخاطر المَلَك، وهذان لا يعدمهما خصوص المؤمنين، وهما محمودان لا يردان إلاّ بحق، ويمادّل عليه العلم. وخاطر العقل، وهو متوسط بين هذه الأربعة، يصلح للمذمومين فيكون حجة على العبد لمكان تمييز العقل وتقسيم المعقول، لأن العبد يدخل في هواه بشهوة جعلت له، واختيار لا يَعرُس عليه من حيث لا يعقل ولا إجبار، ويصلح أيضاً للمحمودين، فيكون شاهداً للملك ومؤيداً لخاطر الروح، ويثاب العبد في حسن النية وصدق المقصد، وإنما كان خاطر العقل تارة مع النفس والعدو، وتارة مع الروح والمَلَك، حكمة من الله تعالى لصنّعه، وإتقاناً لصنّعه، ليُدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول وصحة شهود وتمييز، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عادلاً له وعليه، إذ قد جعل سبحانه هذا الجسم مكاناً لجرّيان أحكامه، ومحلّاً لنفوذ مشيئته في مباني حكمته. كذلك جعل العقل مَطْلَبَةً للخير والشر، يجرى معهما في خزانة الجسم، إذ كان مكاناً للتكليف، وموضعا للتصريف، وسبباً للتعريف، العائد من معاني ذلك على صورة

العبد من لذة النعيم أو عذاب أليم، فلم يكن العقل غائبا فيكون العبد عن العقل ذاهبا، ولم تكن الشهوة عازية فتكون النفس مفقودة، إذ في ذلك تضعيف لحُجَّة الله تعالى عليه، وَهَمَّنْ لِبِرْهَانِهِ، لأن العقل شاهد الحجة، والشهوة في النفس مكان البلوى، والنية في القلب طريق الحُجَّة، وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهي، فالعقل مطبوع على التمييز مجبول على التحسين والتقيح، والنفس مجبولة على الشهوة مطبوعة على الأمر بالهوى، وهذا نصيبهما من عطائه، وهُدَاهُ لهما إلى رشاده وإخوانه، وحظهما من الكتاب وقسمهما من ولى الأسباب، كما قال تعالى في أحكام ما ذكرناه تكملةً لما أخبرنا عمَّا سبق في علمه، أعطى كل شئ خلقَه ثم هدى، وقال تعالى أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، وقال تعالى كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُصَلِّهِ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّمِيرِ.

والخاطر السادس هو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزید العلم، يردآن إليه ويصدران عنه. وهذا خاطر مخصوص بخصوص لا يجده إلا المؤمنون، وهم الشهداء والصنيقون، لا يرد إلا بحق وإن خفي ودوده وبق، ولا يُقدَحُ إلا بعلم اختيار لمراد مختار، وإن لطفت أدلته ووطن وجه الاستدلال به، ولكن ليس يخفى هذا خاطر على مقصود به ومراد له، وهم الذين وصفهم الله تعالى بالذكري، وَرَدَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمُ الْفُتْيَا، فقال سبحانه إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أى من تولى الله حفظ قلبه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهاك في صدرك فدمعة، والإثم حوآن القلوب، يعنى ما يؤثر فيها فيجزؤها لرققتها وصفانها ولينها ولطفها. وقال للرجل الذى سألته عن البر والإثم، وهما أصلا أعمال الخير والشر استتبت قلبك وإن أفتاك المفتون، أى أن المتقين يعلمون معانى التلويل والرخصة عن علمهم العلانية. وأنت على علم فوقهم مطالبٌ بالتحقيق والعزيمة عن علمك السر. وأهل الظاهر أيضا يعلمون حكم الله تعالى الظاهر عن علم اللسان الظاهر الذى هو حجة على أهل العلم الظاهر. وقلبك فقيه منور بالإيمان، تنظر به أو ينطق به حكم الله تعالى الباطن عن علم القلب الباطن الذى هو حقيقة الإيمان، ومنفعت لاهل العلم الباطن. ولا يصلح أن يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلا إلا إلى فقيهه، فلولا أن علم القلب هو حقيقة الفقه مارد صاحبه من فتيا أهل الظاهر إليه، ولا حكَمَ على المفتين به، فقد صار علم القلب هو علم العلم، إذ جعله الرسول صلى الله عليه وسلم قاضياً على المفتين بالحكم، وصار عالم الباطن هو عالم العلماء إذ لم يسعه تقليد العلماء.

وفى الحديث الآخر البرُّ ما اطمان إليه القلب وسكنت إليه النفس وإن أفتوك وأفتوك، فهذا وصف قلب مكاشف بالذكر، ونعت نفس ساكنة بمزيد السكينة. والبر كما وصف من قلوب المؤمنين فى صريح الكلام وفى دليل الخطاب. فأما صريحه فقوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب. وقوله تعالى هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم. وأما دليل الكلام الذى يشهد بالتدبر فقوله تعالى فى وصف قلوب أعدائه المحجوبين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا، ومثله أعنده علم الغيب فهو يرى، ففى تدبر معناه أن أواباءه المستجيبين له، سامعون منه، مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه. وقال تعالى فى مثله مثل الفريقين كالأعمى والأصم، هذا فريق المتبعين للسبل المتفرقة عن سواء السبيل، الضالين عن سواء الصراط، والبصير والسميع هو فريق المهتدين المتبعين للصراط المستقيم. وقال تعالى ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا ييرون، أو ألقى السمع وهو شهيد، إن كان الله يريد أن يفويكم هو ريكم، وقال صلى الله عليه وسلم فى مجمل صفة القلب التقوى ههنا، وأشار إلى القلب. وقال الله سبحانه وتعالى فى ذكر القلوب المقفلة بالذنوب، لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون، وقال تعالى فى فض طابعها بالتقوى، واتقوا الله واسمعوا، واتقوا الله ويعلمكم الله. وفى الخبر إذا أراد الله بعبد خيرا جعل الله له زاجرا من نفسه وواعظا من قلبه. وفى الخبر الآخر من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ. وروينا فى تفسير قوله تعالى ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان، قال سمعناه من قلوبنا، وقال فى ضده لأعدائه أولئك ينادون من مكان بعيد، أى بعيد عن قلوبهم. وقال الله تعالى فى التوبة من ميل القلوب وهما إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما، وبمعناه وهموا بما لم ينالوا فإن يتوبوا يك خيرا لهم. وقال فى تحقيق العمى للقلب فإنها لا تعى الأبصار ولكن تعى القلوب التى فى الصدور، فأهل القلوب يتعظون بلا واعظ من خلق، ويردجرون بلا زاجر فى ظاهر.

وسائر ماذكرناه من الخواطر لا تعدمه المؤمنون. والقلب خزانة الله تعالى من خزائن الغيب. وهذه المعانى جنود الله تعالى مقيمة حول القلب، يخفى منها مايشاء، ويظهر ويبدئ منها مايريد، ويعيد وييسط القلب ما يشاء منها، ويقبضه فيما شاء عنها. وكل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم تفارقه خواطر اليقين، ولكن يضعف الخاطر ويخفى لضعف المعانى ودقتها، ويقوى اليقين ويظهر بقوتها، لأن هذه الثلاثة مكان اليقين، أحدها الإيمان وموضعه من اليقين مكان حجر

النار، والثاني العلم ومكانه موضع الزناد، والثالث العقل وهو مكان الحراق، فإذا اجتمعت هذه الأسباب قَدَحَ خاطر اليقين في القلب. ومثلُ القلب في قوته بقوة مَدَدِهِ، وفي صفائه بجودة عدده، مثلُ المصباح في القنديل إلى مكان العقل منه، والزيت موضع العلم به، وهو روح المصباح، وبمَدَدِهِ يكون ظهور اليقين، والفتيلة مكان الإيمان منه، وهي أصله وقوامه الذي يظهر بها، فعلى قدر قوة الفتيلة وجودة جوهرها يقوى اليقين، وهو مثلُ الإيمان في قوته بالورع، وكما له بالخوف، وعلى مقدار صفاء الزيت وورقته واتساعه تضيئ النار التي هو اليقين، وهو مثلُ العلم في مَدَدِ الزهد وفقد الهوى، فصار العلم مكانا للتوحيد فتمكَّنَ الموحد في التوحيد على قدر المكان. وقد قال الله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله . وقال تعالى فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله، وأن لا إله إلا هو، فقمم العلم على التوحيد فصار أوله، فكلمنا اتسع القلب بالعلم بالله وزهد في الدنيا ازداد إيمانا وعلا، لأنه يرى في علوه ما لا يراه غيره، ويعلم في اتساعه ما لا يعلمه سواه، فيكبر المؤمن به فيكون ذلك مزيد إيمانه وقوته، ثم يشهد كل ما أمن به فيكون بذلك قوة نفسه وسعة مشاهدته. وكلما قصر علم القلب بالله تعالى وبمعاني صفاته وأحكام ملكوته، قلَّ إيمان هذا العبد، ثم أشهد ما أمن به من وراء حجاب لما غلب عليه من حب الأسباب، وسمع الكلام من خلف سترٍ لعجزه عن المسارعة إلى البر، فيضعف بذلك إيمانه، ويتخيل مشاهدته ولا يتحقق، فليس من علم من صفات الله سبحانه وتعالى وقدرة آياته مائة ألف معنى، ثم شهدها كلها عن قرب عن كشف مثل من علم منها عشرة معان، ثم شهدها من بعد عن حجاب. وهما مؤمنان معا، لكن يبين إيمانها في القرب والعلو والزيادة والنقصان كما بين العشرة إلى مائة ألف، فيكون إيمان قلب المسلم معشار معشار عشر إيمان قلب الموقن، والمعشار هو عشر العشر، جزء من مائة جزء. ويكون إيمان قلب المؤمن فيما بين ذلك من الزيادة على العشر والنقصان من مائة ألف على قدر قسمة. ومثل ذلك فيما نعقله مثل رجل قال لك إن عندي فلانا فقد حصل لك علم أنه عنده، غير أن هذا العلم غير يقين لأنه يجوز أن يكون قد اشتبه عليه، أو يكون قد كان عنده ثم خرج وليس هو الآن عنده. وهذا مثلُ إيمان المسلم هو على علم خبر لاخبر. ثم إنك تنسئ إلى فتسمع كلامه من وراء حجاب، فقد علمت الآن أنه عندي، لأنك سمعت كلامه واستدللت به على كونه، إلا أن هذا العلم أيضا غير تحقيق، لأن الأصوات تشتهب والأجرام تتقارب. ولو قلت لك بعد ذلك لم يكن عندي، وإنما كان ذلك غيره أشبه صوتي، تشككت فيه لاحتمال ذلك، ولم يكن عندك يقين عين تدفع به قولي، ولا شهادة نظر تُنكر بها عليّ. وهذا مثلُ إيمان عموم المؤمنين، فهو

إيمان خبر لِعَمْرِي، وفيه يقين استدلالٍ ممتزج بظن، إلا أنه غير مشاهدة العارفين، لأنه قد يدخل عليهم التخيل والتشبيه فلا يدفعونه بشهادة يقين. ثم إنك تدخل إلى الآن بعد أن قيل لك هو عندي، أو بعد أن سمعت كلامه فتشده جالسا لا حجاب بينك وبينه، فهذا هو يقين المعرفة، وهذه شهادة الموقن، وعندما انتفى كل شك وتحقق خبر العلم، وهذا ممثَّل لعلم إيمان الموقنين، الذي قد اندرج فيه إيمان عموم المؤمنين، من علم الخبر المحتمل ومن سماع الكلام المشتبه من وراء حجاب. واسم الإيمان واقع على جميعهم، ولكن الأول عِلْمٌ أنه عندي بما قيل له فصدَّق، والثاني عِلْمٌ بما سَمِعَ فاستدكَّ ولم يشهد فيقطع، والثالث هو الذي عاين فقطع وقد شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالمزيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الخير كالمعينة، وقال ليس المخبر كالمعين. ومثَّل هذا أيضا أن ترى الشيء بالنهار فتعرفه معرفة عيِّن، وتعرف مكانه بنظر لا تخطئه، ثم إنك تحتاج إليه ليلا فلست تعرف مكانه رأى عين، وإنما تقصده بمعرفة استدلال عليه ويحسن ظن أنه موجود على حاله، أو يعرف بشئ معهود أنه لا يتحول. وكذلك الأدلة هي الغائبات وسقوطها مع المشاهدات، وبمعناها رؤية الشيء بنور القمر فإنه يشبح ويلوح المشكلات، ورؤيته في ضياء الشمس فإنها تكشف الأمر على ما هو به، فهذا ممثَّل نور اليقين إلى نور الإيمان. ومثَّل رابع في تفاوت المؤمنين في حقيقة الكمال وبخولهم في الاسم والمعنى، مثل صلاة ربابية أقيمت فجاء رجل فأدرك تكبيرة الإحرام، ثم جاء آخر فأدرك الركوع، ثم جاء آخر فأدرك الركعة الثانية، ثم جاء ثالث فأدرك الركعة الثالثة، ثم جاء رابع فأدرك الركعة الأخيرة، فكلهم قد صلوا وأدركوا الصلاة في جماعة ونال فضلها، لقوله صلى الله عليه وسلم من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة. ولكن ليس من أدرك الركعة الأولى في كمال الصلاة وإدراك حقيقتها كمن أدرك الثالثة والرابعة، ولا يكون أيضا من أدرك التكبيرة للإحرام في الفضل كمن لم يدرك شيئا من القيام وهما مدركان معا، فكذاك المؤمنون في كمال الإيمان وحقائقه لا يستوون وإن استووا في الاسم والمعنى. وكذلك في تفاوتهم في الآخرة فقد جاء في الخبر أنه يقال أخرجوا مَنْ في قلبه مثقال نرة من إيمان، ونصف مثقال، وربع مثقال، وشعيرة، ونرة من إيمان، فقد حصلوا متفاوتين في الإيمان ما بين الذرة إلى المثقال، وكلهم قد دخل النار إلا أنهم على مقامات فيها، وفيه دليل أن مَنْ كان في قلبه وزن دينار من إيمان لم يمنعه ذلك من دخول النار لعظم ما اقتترف من الأوزار، وأن مَنْ كان في قلبه وزن نرة من إيمان لم يحق عليه الخلود في دار الهوان لتعلقه بيسير الإيقان، وأن من زاد إيمانه على وزن دينار لم

يكن للنار عليه سلطان فكان من الأبرار، وأن من نقص إيمانه عن نرة لم يخرج من النار وإن كانت سيماء واسمه في الظاهر في المؤمنين، لأنه في علم الله من المنافقين الفجار، وقد قال الله تعالى في وصفهم وإن الفجار لفي جحيم، ثم قال وما هم عنها بغائبين. ثم صار صاحب المتقال والذرة في الجنة على تفاوت درجات، وكان الزائد إيمانه على متقال في أعلى عليين على هؤلاء، وترفع أهل الدرجات العلى على أهل عليين ارتفاع الكوكب الذي في أفق السماء، وكلهم قد اجتمع في الجنة على تفاوت مقامات وتعالى درجات.

ودرونا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان، فلعمري إن قلب الموقن خيراً من ألف قلب مسلم، لأن إيمانه فوق مائة إيمان مؤمن، وعلمه بالله تعالى أضعاف علم مائة مسلم. ويقال إن واحداً من الأبدال الثلاثمائة قيمته قيمة ثلاثمائة مؤمن. وكان أبو محمد يقول يعطى الله تعالى بعض المؤمنين من الإيمان بوزن جبل أحد، ويعطى بعضهم مثل نرة. وقد قال الله تعالى وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين بالعلو. ولانهاية لعلو الإيمان فصار علو كل قلب على قدر إيمانه، ولذلك رُفِعَ العلماء على المؤمنين درجات في قوله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، ففسرها ابن عباس رضى الله عنه فقال الذين أوتوا العلم فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الخبر أكثر أهل الجنة البله، وعليون لأولى الأبواب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم فضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. ودرونا في لفظ أبلغ من هذا كفضلي على أمي، فالموقنون من المؤمنين أعلى إيماناً، والعالمون من الموقنين أرفع مقاماً، ثم على قدر بياض الماء يستبين من القنديل حسنه وصفائه، ومثل هذا العقل في صحته من الاعتلال وصفائه من كثر الأحوال والأموال، ويجمع ذلك كله القنديل وهو القلب، فطى قدر رقة القلب وأطف جوهره وصفائه من كثره وحسن طهارته عن الآثار تكون هذه العلوم فيه. والأنوار وجوهر الزجاج في الصفاء محتاج إلى صفاء الماء، كما أن صفاء الماء محتاج إلى صفاء الجوهر، وبمعيارهما يكون القلب والعقل. ووقود النور محتاج إلى قوة الفتيلة ومدد الزيت، فبموضعها في القوة والمدد يكون العلم بالله تعالى واليقين، ذلك تقدير العزيز العليم. وكل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم يفارقه خواطر الهوى: الجهل والطمع وحب الدنيا، ثم يضعف خاطر الهوى ويقوى على قدر تمكن هذه الثلاثة من النفس، وحقاتها على مثل ما نكرناه من تمكن خواطر اليقين وضعفها لوجود مكانها وهو العلم والإيمان والعقل. وفي القلب يظهر سلطان ذلك أجمع، ففى جند كانت المشيئة معه

غلب. وروينا عن عليّ عليه السلام أن لله في أرضه آنية وهي القلوب، فأحبها إليه أرقها وأصفاها وأصلبها، ثم فسره فقال أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الإخوان، فمثل القلوب مثل الأواني في تقارب جواهرها، فأرقها وأصفاها وأعلما يصلح للملك والوجه والطيب، وأكثرها وأرداها يصلح للأدناس، وما بين ذلك يصلح لما بينهما. ومثلها أيضا مثل الموازين، الطيار اللطيف المعيار يصلح لوذن الذهب بالتحجير، والمعيار الكثيف الجافى يصلح للقت والأنعام، وما بينهما يصلح لما بين ذلك، فيوزن بكل ميزان ما يصلح له من كل شئ موزون، كما يجعل في كل إناء ما يليق به من كل شئ مرنول أو مصون. كذلك الحكم والحكمة في الملكوت الباطن، كالحكمة والحكم في الملكوت الظاهر بتعديل الظاهر الباطن. وفي تفسير قوله عز وجل مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، فسره أبي بن كعب قال مثل نور المؤمن، وكذلك كان يقرأه، قال فقلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباح، فكلامه نور، وعمله نور، ويتقلب في نور، ثم قال في قوله تعالى أو كظلمات في بحر لجي، قال قلب المنافق فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة ويتقلب في ظلمة. وكان زيد بن أسلم يقول في قوله تعالى في لوح محفوظ، قال قلب المؤمن. وقال أبو محمد سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى.

وروينا في حديث ابن عمر قال قيل يا رسول الله أين الله في الأرض، قال في قلوب عباده المؤمنين. وفي الخبر المأثور عن الله تعالى لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن. وفي بعضها اللين الوادع، فاللين يعني السهل الرقيق القريب، والوادع يعني الساكن المطمئن. وفي الخبر ما أليس العبد أبسة أحسن من خشوع في سكينته، فهذه لبسة المتقين وصيغة الله تعالى للعارفين.

وفي الحديث قيل يا رسول الله من خير الناس، قال كل مؤمن محموم القلب، ثم فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هو التقى النقى الذي لا غش فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد. وقال بعض العارفين في معنى قوله تعالى إلا من أتى الله بقلب سليم، أي مما سوى الله ليس فيه غير الله. وفي قول أهل التفسير سليم من الشرك والنفاق. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك في أمتى أخفى من دبيب النمل، وهذا لا يعدمه المؤمنون إلا الصديقين. وقال أكثر منافقي أمتى قرأوها، وهذا لا يعدمه العابدون إلا العارفين. ومن خواطر اليقين ما يرد بشئ لا تظهر دلالته في الظاهر لخفائه وغموض شواهدة، فليس يعلم إلا بباطن العلم وغامض الفهم

والغوص على لطائف معانى التبيين. وباطن الاستنباط من فهم التنزيل وتعليم التؤول كما قال الحبيب الخليل رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التؤول. وكما قال على بن أبى طالب ما عندنا شئ أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى ، إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهما فى كتابه. وكما جاء فى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء قال الفهم فى كتاب الله. وقال أصدق القائلين ففهمناها سليمان، فخصه بفهم منه زاده به فوق الحكم والعلم الذى شرك فيه أباه فزاده على فتيا أبيه.

وروينا عن على عليه السلام فى الحديث الطويل الذى يقول فيه واليقين على أربع شعب، على تبصرة الفطنة، وتؤول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصر الفطنة تؤول الحكمة، ومن تؤول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة كان فى الأولين، إلا أن أهل اليقين، المرادين به، العارفين بأحكام الله تعالى الباطنة، يعلمون تفصيل خواطر اليقين ومقتضاها من حيث أشهرها مطلعها من الغيب، وبحيث عرفوا موجبها من الوصف بنور الله الثاقب وقرية الحاضر وسلطانه النافذ. كما جاء فى الخبر اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى أى باليقين، وفى لفظ آخر اتقوا فراسة العالم فكأنه مفسر له. ومنه قوله تعالى وإن فى ذلك لآيات للمتوسمين. وقوله قد بينا الآيات لقوم يوقنون أى بنور اليقين. وكان أبو الدرداء يقول المؤمن ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق. والله إنه للحق يقذفه الله تعالى فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. وقال بعض العلماء ظن المؤمن كهانة، أى كأنه سحر من نفاذه وصحة وقوعه. وقال بعض العلماء يد الله تعالى على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيا الله عز وجل لهم من الحق. وقال آخر لو شئت لقلت إن الله يطلع الخاشعين على بعض سره. وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد احفظوا ماتسمعون من المتعظين، فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة. وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قبلا، يا أيها الذين آمنوا إن اتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، قيل نور تفرقون به بين الشبهات ، ويقين تفرقون به المشكلات . ومن هذا قوله سبحانه وتعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، قيل مخرجا من كل أمر ضاق على الناس ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، يعلمه علما بغير تعليم ويؤطنه بغير تجربة ، أى بالشاهد الصحيح والحق الصريح. ومثله قوله تعالى والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا ، قيل الذين يعملون بما يعلمون، قال يوفقه ويهديهم إلى ما لا يعلمون حتى يكونوا علماء حكماء. وقال بعض السلف نزلت هذه الآية فى المتعبدين المنقطعين إلى الله سبحانه وتعالى المستوحشين من الناس، فيسوق الله تعالى إليهم

مَنْ يَعْلَمُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُهُمُ التَّوْفِيقَ وَالْعَصْمَةَ.

وفى الخبر من عِلْمٍ بما يعلم أورثه الله تعالى عِلْمَ مالم يعلم، ووفَّقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم، ولم يوفَّق فيما يعمل، حتى يستوجب النار. فمعنى أورثه علم مالم يعلم أى من علوم المعارف التى هى موارث أعمال القلوب، مثل الفرق بين الاختبار والاختيار، والابتلاء والاجتباء، والمثوية والعقوبة، ومعرفة النقص من المزيد، والقبض والبسط، والحل والعقد، والجمع والتفرقة، إلى غير ذلك من علوم العارفين، بعد حُسن التفقه والأدب عن مشاهدة الرقيب، والقرب لصحة المواجيد والقلوب.

وقال بعض التابعين من عمل بعُشر ما يعلمه الله تعالى ما جهل. وقد قال حذيفة أنتم اليوم فى زمانٍ مَنْ ترك عُشر ما يعلم هلك، وسيأتى بعدكم زمانٌ مَنْ عملَ بعُشر ما يعلم نجا. وقال بعضهم كلما ازداد العبد عبادةً واجتهاداً ازداد القلب قوَّةً ونشاطاً، وكلما ملَّ العبدُ وقُتِرَ ازداد القلب ضعفاً وهناً. وليس يكاد علم اليقين يتقدح فى معدن العقل لأن علوم العقل مخلوقات، ولا يكاد ينتج الفكر، ولا يخرج التدبر، فما أنتجت الأفكار واستخرجت الفطرة من الخواطر والعلوم، فتلك علوم العقل، وهى كشوف المؤمنين ومحمودات لأهل الدين.

فأما خاطر اليقين فإنه يظهر من عين اليقين، يُنادى به العبد مناداةً، ويبغته مفاجأة، لأنه مخصوص به مراد، مقصود به محبوب، متولى به مطلوب، لا يجده إلا عارف أو خائف أو محب، ومن سِوى هؤلاء فيحاله محجوب، ويعداته مطلوب، وإلى مقامه ناظر، وفى طريقه بمعقوله سائر،

فأما العارفون، المواجِهون بعين اليقين، المكاشفون بعلم الصديقين فإنهم مسيرون، محمولون سابقون مستهترون، قد وضعت الأذكارُ عنهم الأوزار، كما جاء فى الخبر سيروا سبقَ المفردون بالفتح، والمفردون أيضا بالكسر، فهم مفردون لله تعالى بما أفردهم الله تعالى، وقيل ومن المفردون قال المستهترون بذِكْرِ الله، وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا، فلما أفردهم الله تعالى ممن سواهم له أفردوه عما سواه به، فنكَّروهم، فاستولى عليهم نكره، فاصطلم قلوبهم نوَّره تعالى، فاندرج نِكْرُهُم فى نِكْرِهِ، فكان هو الذاكر لهم، وكانوا هم المكان لمجارى قدرته عز وجل، فلا يوزن مقدار هذا الذكر ولا يكتب كيفية هذا البر، فلو وضعت السموات والأرض فى كفة لرجح نكره تعالى لهم بهما، وهم الذين قال لهم فترى مَنْ واجهته بوجهى، لعلم أحد أى شئ

أريد أن أعطيه، لو كانت السموات والأرض في موازينهم لاستقللتها لهم، أول ما أعطيتهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبروني عنى كما أخبر عنهم. وهذا هو ظاهر أوصافهم وأول عطاياهم، فطلب هؤلاء لا يُعرف، ونصيبهم لا يُكَيَّف، ومطلوبهم كَنَّةُ قَدْرِهِ لا يوصف، عطاؤهم غير مخلوق، ومشاهدتهم وصف التحقيق بعين اليقين إلى حق اليقين، فنول نصيبهم من مطلوبهم علم اليقين، وهو صفاء المعرفة بالله تعالى، وآخر علم الإيمان أول عين اليقين، وهو مشاهدة وصف معروف، وهذه وجهة التوحيد، ولا آخر لأول علم اليقين، ولا انقطاع لآخر نصيبهم من مشاهدتهم، فظاهر التوحيد توحيد الله تعالى في كل شيء، ومشاهدة إيجاده قبل كل شيء، ولا نهاية لعلم التوحيد، ولا غاية لمزيد عطاء الموحدين، ولكن لهم نهايات يوقفون تحتها، وغايات يصدرون عنها تجعل أماكن لمزيدهم، ويزدادون في وسعها، ويُمتُونُ بعلوم يطلبون بها ما يَكاشِفُون به لِمَا وراها، أبدأً ببديلاً آخر ولا أمد، ولا يصل العبد إلى مشاهدة علم التوحيد إلا بعلم المعرفة، وهو نور اليقين، ولا يُعطى نور اليقين حتى تُمَحِّضَ الجوارح بالأعمال الصالحات كما يُمَحِّضُ الزَّقِّقُ باللبن، حتى تظهر الزبدة وهي علم اليقين. وليست هذه الزبدة غاية الطالبين ولا بُغْيَةُ الصديقين لأن وراها صَفْوُهَا وخالصتها، ثم تذاب هذه الزبدة حتى يخلُصَ سمنها وهو صَفْوُهَا ونهايتها. وهذا مُثَلٌ لعين اليقين بعد علمه، وبعد مشاهدة الوجه بمرآة القرب، وهي نوره، فحينئذ لا يفارقه وَجْدُهُ وحضوره، فيُرفَعُ العبد من خواطر اليقين إلى مشاهدة الصفات، بعد نوب علم الخواطر يتجوهر نور شعاع وجه الذات، وهذا مقام الإحسان وإنَّ الله لَمَعَ المحسنين بعد مجاهدتهم النفوس فيه، وبيعها مع الأموال منه، فأحسَنَ إليهم بأشترائها منهم، وكان معهم كما قال سيجريهم وصفهم، فإنما كنوا محسنين لأن المحسن معهم، كما كانوا أعلين إذ الأعلَى معهم، فقد قال وأنتم الأعلون والله معكم. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه. وينتقل العبد من أعمال الجوارح وهي المجاهدة التي طُرِحَ عليه ثَقْلُهَا فحملها، فَتُحْمَلُ فيما حمل، وتُحْفَظُ له ما استحفظ إلى علم اليقين، وهو الروح والرضا وهذا هو هداية السبيل.

وأول هذا كله أن يدخل العبد بعد التوبة النصوحة في أهوال المریدين وأعمال المجاهدين للنفوس والعدو، ثم ينتقل إلى خواطر اليقين فهذا ميراث المجاهدين، كما قال والذين جاهدوا فينا، يعنى نفوسهم وأموالهم وجاهدوا عدوهم إذ يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء نصابهم فغلبوه، فباعوا النفوس والأموال، فأعْتَبُوا من رِقِّ الهوى، ونَجَّوا من أهوال الحساب لنهدينهم

سبَّكنا ، أى لنطرقنهم إلى مكاشفات العلوم، ولنسمعنهم غرائب الفهوم، ولنوصلنهم إلى أقرب الطرق إلينا بـُحْسَن مجاهدتهم فينا. ثم ختم الأمر بقوله تعالى وإن الله لمع المحسنين. هذا مقام مشاهدة الصفات، فكان المجاهد فيه معهم أولاً بالتوفيق، فبه صبروا له بالتأييد. وكان المحسن معهم آخر اليوم فيه أحسنوا إلى نفوسهم غدا.

وروينا عن الحسن البصرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم علمان، فعلم باطن فى القلب فذاك هو النافع. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ما هذا الشرح، قال هو التوسعة، يعنى أن النور إذا قُدِّف فى القلب اتسع له الصدر وانشرح. وقال بعض العارفين: لى قلب إذا عصيته عصيت الله تعالى، يعنى أنه لا يُقَدِّف فيه إلا طاعة ولا يقرّ فيه إلا حق، فقد صار رسوله إليه ، فإذا عصاه فقد عصا المرسل، بمعنى الخبر الإيمان ماوقر فى القلب وصدق العمل، ويقول صلى الله عليه وسلم المؤمن ينظر بنور الله، فمن نظر بنور الله كان على بصيرة من الله تعالى وكان عمله بنوره طاعة لله تعالى.

وقال بعض العارفين منذ عشرين سنة ماسكن قلبى إلى نفسى ساعة ، وماساكنته طرفة عين. وسئل بعض العلماء عن علم الباطن أى شئ هو، فقال سرّ من سرّ الله تعالى يقذفه فى قلوب أحبائه، لم يُطْلِعْ عليه ملكاً ولا بشرا. وقد روينا فيه خبرا مسندا أحببنا أن نسنده، وقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال علّمنى من غرائب العلم، فقال هل عرفت الرب، فنخبر أن غرائب العلوم فى المعرفة .

وقد أمر صلى الله عليه وسلم بأصل العلوم الذى فيه غرائب الفهوم، فقال اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائب، يعنى تدبّر معانيه واستنباط بواطنه، إذ بكلامه عرّفه أولياؤه.

وقد قيل تكلموا تُعرّفوا ، فمن عرف معانى الكلام ووجوه الخطاب عرّف به معانى الصفات وغرائب علوم أسماء الذات. وقال ابن مسعود من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن . وقال بعض أهل المعرفة فى فهم هذه الآية إن الله يأمر بالعدل والإحسان، قال العدل تدبّر القرآن وفهمه، والإحسان مشاهدة الفهم. وفى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام فى صفة العدل شاهدٌ لقوله هذا فى حديثه الذى وصف فيه شُعبَ الإيمان، فقال الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. ثم قال والعدل على أربع شُعبَ: غانص الفهم، وزهرة العلم،

وروضة الحلم، وشرائع الحكم، فمن فهم فسّر جمل العلم، وعن علم عرف شرائع الحكم، وعن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميدا .

وقال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فساكني أن أملئ عليه شيئا من نكري الخفى من مشاهدتي من التوحيد. وقال ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تنقرب به إلى الله تعالى، فقلت أليس يكتبان الفرائض، قال بلى، قلت فيكفيهما ذلك. وقال بعض العارفين، قال سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله وقال ماتقول رحمك الله، ثم التفت إلى يمينه فقال ماتقول رحمك الله، ثم أطرق إلى صدره وقال ماتقول رحمك الله، ثم أجبني بأغرب جواب ماسمعت قط وأعلاه، فقلت رأيتك التفت عن شمالك ويمينك ثم أقبلت على صدرك فلماذا، فقال سألتني عن مسألة لم يكن عندي فيها علم عتيد، فالتفت إلي صاحب الشمال فسألكه عنها، وظننت أن عنده منها علماً فقال لا أدري، فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري، فنظرت إلى قلبي فسألكه فحدثني بما أجبك وإذا هو أعلم منهما. وقد كان أبو يزيد وغيره يقولون ليس العالم الذي يحفظ من كتاب الله، فإذا نسي ما حفظ صار جاهلا، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه عز وجل، أي وقت شاء بلا تحفظ ولا درس، فهذا لعمري لا ينسى علمه، وهو ذاكر أبدأ لا يحتاج إلى كتاب، وهو العالم الرباني. وهذا هو وصف قلوب الأبدال من الموقنين، ليسوا واقفين مع حفظ، إنما هم قائمون بحافظ. وقد روينا في الخبر أن من أمتى محدثين ومكلمين، وإن عمر منهم. وقرأ ابن عباس وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعني الصديقين. وهذا كان طريق السلف من الصحابة وخيار التابعين، إذا ستلوا وفقوا وألهموا الصواب لقربهم من حسن التوفيق، وسلوكهم حقيقة محجة الطريق، فخطر اليقين إذا ورد على قلب مؤمن اضطرت مشاهدته إلى القيام به وإن خفي على غيره، وحكم عليه بيانه وبرهانه بصحة دليبه وإن التبس على من سواه، وقد قال الله تعالى في تخصيص الموقنين قد بينا الآيات لقوم يوقنون، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون. وقال في نعت المتقين وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم يتقون. وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. وقال في فضل العلماء بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. وقال قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون، فحقيقة العلم إنما هو من التقوى واليقين، وهذا هو علم المعرفة المخصوص به المقربون، وهب لهم الآيات وخصهم بالبيان والدلالات بما استحفظوا من كتاب الله

وكانوا عليه شهداء، فهذه الخواطر تبدو في القلوب عن هذه الأواسط التي هي خزائن الله تعالى من خزائن الأرض، والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون، والفقهاء صفة القلب، والعرب تقول ففقت بمعنى فهمت، وابن عباس يفسر قول الله عز وجل لهم قلوب لا يفقهون بها، يقول لا يفهمون بها، ويجعل الفقهاء الفهم، فخواطر اليقين والروح والملك من خزائن الله، وخواطر العقل والنفس والعدو من خزائن الأرض، كما قيل النفس تُرابية خلقت من الأرض فهي تميل إلى التراب، والروح روحاني خلق من الملكوت فهي ترتاح إلى العلق، والقلب خزائن الملكوت مثله كالمرأة تقدح هذه الخواطر عن أواسطها من خزائن الغيب فتوقد في القلب فيتلاها فيه للتأثير، فمنها ما يقع في سمع القلب فيكون فهما، ومنها ما يقع في بصر القلب فيكون نظرا وهو المشاهدة، ومنها ما يقع في لسان القلب فيكون كلاما وهو الذوق، ومنها ما يقع في شم القلب فيكون علما وهو الفكر، وهو العقل المكتسب بتلقيح العقل الغريزي، وهذا أقلها نبأ وأيسرها عناء. وما وقع في ناظر القلب وحسه فخرق شفافه ووصل إلى سويدانه وهو المباشرة كان وجداً، وهذا هو الحال عن مقام المشاهدة، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم أسألك إيماناً يباشر قلبي. وقال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محباً للأخرة والدنيا، وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه. فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه. وقد قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله للقلب تجويفان، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وكان يُسمى هذا قلب القلب، والتجويف الآخر ظاهر القلب وفيه العقل، ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين هو حيقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصيقال الذي في سواد العين، فإذا كانت هذه الخواطر عن أواسط الهداة به وهي الملك والروح كانت تقوى وهدي ورشد، أو كانت من خزائن الخير ومفتاح الرحمة قدحت في قلب العبد نوراً وطيباً، أدرك الحفظة وهم أملاك اليمين فائتبتها حسنات، وإن كانت الخواطر عن أواسط الفؤاد وهم العدو والنفس، كانت فجوراً وضلالاً، وهي من خزائن الشر، ومعالق الأعراض، قدحت في القلب ظلمة وبنّت أدرك ذلك الحفظة من أملاك الشمال فكتبوها سيئات. وكل هذا إلهام وإلقاء من خالق النفس ومُسويها وجبار القلوب ومقلبها، حكماً منه وعدلاً لمن شاء، ومنه وفضلاً لمن أحب، كما قال وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، أي بالهداية صدقاً لأولياته ما وعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلاً على أعدائه ما أعد لهم من عقابهم. ثم قال تعالى لا يُسئَل عما يفعل وهم يُسئَلون، فهذه جنود

منقادة لامره وهو ملكٌ جبار عزيز قهار، تعالى عن مباشرة الأشياء، إذ كانت تنقاد لمشيئته وتطوع لقدرته، فتتخذ قدرته إرادته، وتظهر حكمته أفعاله. إذا أراد شيئاً قال له كن بخفى قدرته فكان بظاهر حكمته. والرب سبحانه قاهر على كل شئ، بيده ملكوت كل شئ، حكيم فى كل شئ، والعبد ضعيف عاجز جاهل لا يقدر على شئ. قد ابتلى بالأسباب ووقع عليه الحجاب، وجعل مكانا للأحكام بالعقاب والثواب، فالأسباب أواسط البلاء، والعبد موضع الابتلاء، والأول سبحانه وتعالى هو المبلى المرید المبدئ المعيد، وينشئكم فيما لا تطمون، وليبلى المؤمن من بلاء حسنا، وليس يشهد العبد إلا ما أشهد، فبذلك تفاوت العباد فى المشاهدة، ولا يستبين له إلا ما أبين له وأريد به، فعن ذلك اختلفوا فى الأدلة. فإذا أراد الله عز وجل إظهار شئ من خزائن الغيب حرك النفس بلطيف القدرة، فتحررت بإذنه، ففدح من جواهرها بحر كتبها ظلمة تكتب فى القلب همة سوء، فينظر العدو إلى القلب، وهو مرآصد ينتظر. والقلب له مبسوطة والنفس لدية منشورة، يرى ما فيها ما كان من عمله المبتلى به، المُصرف فيه، فإذا رأى همة قد قسحت فى النفس فائترت ظلمة فى القلب ظهر مكانه أقوى بذاك سلطانه.

والهمة ترد على أحد ثلاث معان لا تحصى فروعا، لأن همة كل عبد على قدر بُغيته، أحدها هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنيته، وهذا عن الجهل الغريزي، أو دعوى حركة أو سكون، وهو آفة العقل ومحبة القلب، فلى هذه الثلاث قدح فى القلب فهو وسوسة نفس، وحضور عدو منسوب إليه، محكوم عليه بالنم، ليست تصدر إلا بأحد ثلاثة أصول، بجهل أو غفلة أو طلب فضول دنيا، ومن مما لا يعنى ومضافات إلى الدنيا وأعمالها، والأفضل مجاهدة النفس والعدو عن إمضائها، وحبس الجوارح عن السعى فيها إن كُنَّ من فضول الدنيا المباحات، فإن كن هذه الثلاث ورنن بمحرّمات ففرضٌ عليه كف الجوارح عن السعى فيها، فإن أمرح قلبه فى نكرها أو نشر خطواته فى طلبها كن حجابا بين قلبه وبين اليقين، وإن كن ورنن بمباحات ففضل له بنفياها عن قلبه كيلا يكون قلبه موطنًا للغفلات، وأصلهن الابتلاء من الله تعالى بالتقليب والامتحان منه فى التصريف، ولذلك خلق النفس والروح والموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها ليظهر أحسن العمل بالزهد فيها وينظر كيف تعملون. فإذا أراد الله تعالى سلامة هذا العبد بعد أن أشرف على الهلاك والبعد، بتسليط العدو عليه وتسويل النفس له، نظر القلب عند الابتلاء، فهدى النفس بنور إيمانه إلى الله تعالى، فأنسر الالتجاء إليه وأخفى التوكل عليه،

عائداً لا تُذأ به، واضطر مخلصاً له، فهناك توكل عليه فكان حسبه، وعندما فُوض إليه أمره فوقاه مكر عدوه، وحينئذ اضطر إليه واتقاه فجعل له مخرجاً ونجاةً، فينظر الله تعالى إلى القلب نظرة تخمد النفس وتمحق الهمة وتُخنس العدو لسقوط مكانه، وتذهب لخنوسه شدة سلطانه، فيصفو القلب من التأثير بنور السراج المنير، ويمس من التحرير بقوة القهار العزيز، فيخاف العبد مقام الرب لصفاء القلب عن نظر الرب تعالى، فيفزع من الخطيئة ويهرب أو يستغفر منها ويتوب، ويظهر عليه شعار تقواه. وإن أراد الله تعالى بعبدٍ هلكاً وكان قد حكم بوقوع الشر، نظر القلب بعد الهمة بهوى النفس إلى العقل فرجع العقل إلى النفس فسوكت وطومت، فسكن العقل واطمأن إلى تسويل النفس وطوئها، فانشرح الصدر بالهوى لسكون العقل، وانتشر الهوى في القلب لشرح الصدر وتوسعته، فقوى سلطان العدو لاتساع مكانه، فأقبل بتزيينه وغروره وأمانيه ووعده، يوحى بذلك زُخرفاً من القول وغرورا، فيضعف سلطان لقوة سلطان العدو وخفاء نور اليقين، فغلب الهوى لقوة الشهوة، فأحرقت الشهوة العلم والبيان، فارتفع الحياء واستتر الإيمان بالشهوة، فظهرت المعصية لغلبة الهوى وارتفاع الحياء. وهذان المعنيان من ظهور الخير والشر والطاعة والمعصية بهذه الأسباب يوجدان في طرفة عين، فتصير أجزاء العبد جزءاً واحداً، ومفصلاته تعود بالمراد منه فصلاً واحداً، كالبرق في السرعة بتغليب القدرة على المشيئة، إذا قال جل وعلا له كن فيكون. وإن أراد الله تعالى إظهار خير وإلهام تقوى من خزائن الملكوت حرك الروح بخفى اللطف فتحركت بأمره جلّت قدرته، فقدح من جوهرها نور سطع في القلب همةً عالية، وهمةً الخير ترى بأحد ثلاثة معان لا تحصى فروعها، لأن كل عبد همته في الخير مبلغ طمه ومنتهى مقامه، فأحد الأصول مسارعة إلى أمر يفرض، أو ندب لفضل يكون عن عمل حال العبد، أو علم يكون فطنة له أظهر عليه من مكاشفة غيب من ملك أو ملكوت، والمعنى الثالث بتحمل مباح من تصرف فيما يعني مما يعود صلاحه عليه، واستراحة النفس بما أبيع له يكون نفعه لغيره، أو ترويحات من الأفكار لقلبه الغائص في البحار يكون حملاً لكُريه وتخفيفاً لتقله، فهذه مرافق للعبد باختياره من العبود وحكمة من الحكيم، وفي كلها رضاه سبحانه وتعالى، فإمضاؤها أفضل للعبد وبعضها أفضل من بعض. وهذه الأصول الستة من الخير والشرهي الفرق بين أمة الملك وبين لمة العدو، وبين إلهام التقوى وإلهام الفجور التي هي النية والوسوسة، وهما الاختيار أو الاختبار. وقد تكون هذه المعاني مكاشفات مزيد للعبد ينظر الله منها، ويجد الله تعالى بما أوجده منه عندها، ويكون تعريفاً من الله يتعرف إليه بها، ويفتح له باب الأنس

والشوق منها، ثم تتفاوت العباد في مشاهدتها على حسب علوها في اليقين، وعلى قدر قوتهم ومكانهم من التمكين، إلا أن أصول معاني الخير وأواسطها إلهام الملك، والإلقاء في الروح وقوادح الأنوار في كتب الإيمان ودرومها الآخرة، والعلم مما أمر به أو نُدب إليه، والمباح، وأصول معاني الشر، أضدادها، وأواسطها النفس والعدو، وأسبابها الشهوة والهوى، يظهرن من الجهل، ويوقعن الحجاب ويُصدرن إلى عقاب. فإذا أراد الله تعالى إظهار خير من خزانة الروح حركها فسطعت نوراً في القلب فاثرت، فينظر الملك إلى القلب فيرى ما أحدث الله تعالى فيه فيظهر مكانه فيتمكن على مثال فعل العدو في خزانة الشر وهي النفس، والملك مجبول على الهداية مطبوع على حب الطاعة، كما أن العدو مجبول على الغواية مطبوع على حب المعصية، فيلقى الملك الإلهام وهو خطوره على القلب بقَدْحِ خواطره، يأمر بتقييد ذلك ويُحسنه له ويحثه عليه، وهذا هو إلهام التقوى والرُشد، وينظر الملك إلى اليقين كما نظر العدو إلى النفس، فيشهد اليقين للملك بذلك، فيطمئن العقل ويسكن إلى شهادة اليقين، ويصير العقل الآن بإذن الله تعالى مع الملك بتأييد الله تعالى، كما كان مع النفس أول مرة مطمئناً إليها، فينشرح الصدر لطمائنة العقل، فتظهر أدلة العلم لانضراح الصدر، فيقوى سلطان اليقين لصفاء الإيمان، وتندرج ظلمة الهوى في نور اليقين، وتتطفي شعلة الشهوة لظهور نور الإيمان، ويؤزّن الإيمان بزينة الحياء، فتضعف صفات النفس اسقوط الشهوة، ويقوى القلب لضعف النفس، ويزيد الإيمان بقوة اليقين ويظهر أدلة العلم، فتغلب الهداية لمزيد الإيمان وبأسه الحياء، فتظهر الطاعة لقلبة الحق، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ذكر نوع آخر من البيان

وقد تختلف الممّتان من الملك والعدو وتتفاوت الإلهام والوسوسة في المعاني من الخير والشر، فربما تقدّمت أمة العدو بالأمر بالشر، وتقدح بعدما أمة الملك، نُصرة للعبد وتثبيتاً على الخير وهنأية من الرب تعالى، فينهى من ذلك، فعلى العبد أن يعصى خاطر الأوك ويطيع خاطر الثاني وقد يتقدم إلهام الملك بالأمر بالخير، ثم يقَدْحُ بعده خاطر العدو بالنهي عنه والتثبيط والإملاء فيه بالتأخير، محنة من الله تعالى للعبد، لينظر كيف يعمل، وحسداً من العدو، فعليه أن يطيع خاطر الأول ويعصى خاطر الثاني. ثم تدقّ الخواطر من إلهام الملك بالخير ومن وسوسة العدو بالشر، وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة في الدنيا، ومن قوة

خاطر الشر لقوة الشهوة والهوى، وفي المزيد والنقص منهما، والتقديم والتأخير بهما، لتفاوت الأحكام والإرادة من الحاكم، ومن قبل تقليب القدرة وغرائب الأحكام بالمشيئة، لأن له في خزانة الخير خزانة الشر إذا شاء، وله في خزانة الشر خزائن الخير إذا أحب لمن يحبه، لئلا يسكن إلى سواه. ولا يدل العبد بما منه أبداه، فإذا شهد العارف ذلك لم يقطع بخير ولم يدل به أبداً، لأنه لا يأمن مكر الله تعالى بتقليب خزائن الشر من خزائن الخير إذا عليه أبداه، ولم ييأس من شر عليه أبداه لأنه يرجو تقليب خزائن الخير من خزائن الشر، فيكون بين الخوف والرجاء، ولا يدرك ذلك إلا ببقائى العلوم ولطائف الفهوم وغوامض الفطن وصفاء الأنوار من تعليم الرحيم الجبار، فما كان للعبد يجد بعد خطرة الشر خطرة خير منها تنهاه عنها، فهو منظور إليه متدارك به، وهذا هو الواعظ القائم في القلب، والزاجر المؤيد للعقل. وقد تترادف خواطر الشر من النفس والهوى فلا يتعاقبها خاطر خير الملك وهذا علامة البعد ونهاية قسوة القلب. وقد تتابع خواطر الخير والبر من الروح والملك، ويُعافى العبد من خاطر الهوى والنفس، وهذا علامة القرب وهو حال المقرين. وقد ترد خواطر العدو وسأوسه بالخير والبر ابتلاءً من الله تعالى لعبده، وحيلة من العدو ومكر من النفس، يريد العدو بذلك الشر أن يخرجه آخراً إلى إثم أو خير، ليقطعه بذلك عن واجب، أو يشغله به عن الأفضل في الحال، فيكون ظاهره براً وباطنه إثماً، ويكون أوله خيراً وآخره إثماً، وبغية العدو من ذلك باطنه وآخره، وشهوة النفس في ذلك هواها ومناها قد لبسا ظاهره بالخير تزييناً، وموهاً أوله بالبر تحسيناً، وهذا من أدق ما يبئلى به العاملون، ولا يعرف بواطنه وسرائره إلا العالمون. فأمّا خاطر الملك فلا يرد إلا بخير صريح وبر محض على كل حال إذا ورد، لأن الخداع والحيلة ليس من وصف الملائكة، ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته ودامت معصيته من المتعبدين، فيخلى بين القلب وبين نوازع العدو اللعين، ويتخلى العدو بهوى النفس فيستحوذ ويقترب بالعبد، نعوذ بالله من إبعاده وعدم خيره وإرشاده. ولا يزال العبد مع إلهام الملك في مقام الإيمان، فإذا رُفِعَ إلى مقام اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح، فكان الروح مكان إلقاء الحق حتى يرد عليه من الله تعالى بواسطة أنوار الروح من السرائر ما لا يطلع عليه الملك، ولا يكون ذلك حتى تفنى خواطر النفس بالهوى، ولا تبقى منها باقية، وتطوى النفس فتندرج في الروح فلا يظهر منها داعية، ثم يتولاه الله تعالى بنور اليقين

فيستطع له نور اليقين من خزانة الغيب المحجوب بمكاشفات الجبروت، فيشهد العبد شهادة الحق بالحق معاينة الغيب، بفقد كونه ووجد كينونته، وما لا يصلح بعد ذلك كشفه إلا لأمله، أو لمن سأل عنه، وهذا يكون في مقام التوحيد، وهذا أنصبة المقربين.

فكر بياني آخر من تفصيل المعاني

وكل عمل وإن قلَّ لابد فيه من ثلاثة معان قد استأثر الله تعالى بتأويلها، أولها التوفيق وهو الاتفاق أن يجمع بينك وبين الشيء، ثم القوة وهو اسم لثبات الحركة التي هي أول العقل، ثم الصبر وهو تمام الفعل الذي به يتم، فقد ردَّ الله عز وجل هذه الأصول التي يظهر عنها كل عمل إليه، فقال سبحانه وما توفيتي إلا بالله، وقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وقال عز وجل واصبر وما صبرك إلا بالله. وقد أجمل الله عز وجل ذكر تقليب الكون بمشيئته في قوله تعالى يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، والمعنى بما فيها لأنهما ظرفان للأشياء فعبَّرَ عنهما بهما، كقوله تعالى بل مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، والمعنى مكرِّم في الليل والنهار، فعبَّرَ بهما عن مكرِّم، لأنهما مكان لمكرِّم، وكذلك قوله تعالى وله ما سكن في الليل والنهار، فيها وجهان أحدهما أى ما أقام من السكن، والثاني ما سكن من السكن وإنما ذكر السكن بون الحركة لأنه هو الأصل حتى تحرك وهو الأقرب إلى العجز والعدم، والتحريك حادث جار بأحداث الله تعالى وإجرائه. ويجوز أيضا ذكر السكن ليُستدلَّ به على الحركة لأنه ضدهما كما قال الله تعالى سراويل تهيك الحر، وهى أيضا تقي البرد، فنكر أحد الوصفين ليُستدلَّ به على الآخر. وقال سبحانه ونقلب أفئدتهم وأبصارهم. وكان قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب لما شهد من عظيم القدرة ولطيف الصنع في التقليب، ولما رأى من سرعة نفاذ القدرة بالمراد في المقلبات مما لم يشهد سواه، فجمعه قسما له تعظيما لقدرة المحلوف به وخوفا من سابق العلم بالتقليب، فكان يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، وقالوا له تخاف يا رسول الله، قال وما يؤمننى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وفي لفظ حديث آخر إن شاء أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل القلب مثل العصفور في تقلبه يتقلب في كل ساعة. وفي خبر آخر مثل القلب في تقلبه كالقبر إذا استجمعت غليا. والخبر المشتهر مثل القلب كمثل ريشة بارض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن. فالقلب مكان للتقليب بما فيه من خزائن الغيب، كالليل والنهار مكان للأحكام بالتصريف من اختلاف الأزمان في الأوقات.

وإيمان بتقليب القلوب وبأن المقلب يحول بين القلب وبين صاحبه واجب. وقد قرنَ الله عز

وجل الإيمان بالبعث في قوله تعالى واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون. وفسره ابن عباس فقال يحول بين المؤمن وبين الكفر، ويحول بين الكافر وبين الإيمان. وقيل يحول بين العبد وبين الاستجابة لله تعالى والرسول. وقيل يحول بين المؤمن وبين سوء الخاتمة، وبين الكافر وحسن الخاتمة. وقيل يحول بين المؤمن وبين أن يلقيه في كبيرة يهلك فيها، وبين المنافق وبين أن يوفقه لطاعة فينجو بها. ويحول بين الموحّد وبين الخاتمة بالتوحيد. وهذه مخاوف للمؤمنين بتحقيق الوعيد. وكذلك الكون بأسره عند الموحّدين في القدرة بالتقليب كمثل ريشة في ريح عاصف تقلّب القدرة على مشيئة القادر.

وليس في القدرة ترتيب ولا مسافة ولا بُعد ولا يحتاج إلى زمان ولا مكان، فما ظهر من الملك وثبت للعيون بمكان وزمان فلأجل الحكمة والصنعة والإتقان، وما خفى من الملكوت وتقلّب ببصائر القلوب فبإلطف القدرة وقهر السلطان. ونصيب كل عبد من مشاهدة القدرة بقدر نصيبه من التوحيد، ونصيبه من التوحيد حسب قسّمه من اليقين. وقسّمه من اليقين على قُربه من القريب، وقربه على حسب قُرب الله تعالى من قلبه، وقرب الله تعالى منه بقدر علمه بالله تعالى، واتساعه في العلم بالله عز وجل على نحو مكانه من مزيد الإيمان، ومزيد إيمانه على قدر إحسان الله تعالى إليه، وإحسانه إليه على قدر عنايته به وإيثاره له، وعلم الله من وراء ذلك، وذاك سر القدرة المحجوب المختزن.

ونصيب كل عبد من الجهل على قدر نصيبه من الغفلة، ونصيبه من الغفلة على حسب حب الدنيا. وحب الدنيا على قدر قوّة الهوى، وقوّة الهوى على قدر غلبة سلطان النفس ونشر صفاتها عليه، وقوّة صفات النفس على قدر ضعف اليقين، وضعف يقينه على كثافة الحجاب والبعد بينه وبين الله عز وجل، والحجاب والبعد ميراثه الكبر وقسوة القلب، والقسوة تورث الانهماك في المعاصي، وإدمان المعاصي عن الإعراض والمقت. والإعراض والمقت من قلة عناية المولى بعبده وسوء نظره له، ومن وراء ذلك سر القدر الذي به عن الخلق قد استأثر، فهذه الأوصاف المنمومة العبد مبتلى بها على تضاد تلك الصفات المحمودة التي هي من المنعم بها، ولكل وجهة هو موليها.

ومكان الهوى من القلب على قدر تزيين العدو له وتسليطه عليه، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً. إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله، فإذا كان الهادي هو المضلّ فمن يهدي. وقد قال الله

تعالى فإن الله لا يهدى من يضل، أى فإن الله من شأنه أن أحداً لا يهدى من أضله. ومن كان أضله الله فى سابق علمه فكيف يهديه الآن. كذلك قال على الحرف الآخر فإن الله لا يهدى من يضل، فإذا كان المعطى هو المانع فمن يعطى. ولو كان الخير كله فى قلب عبد ما قدر أن يُوصَلَ إلى قلبه من قلبه نزة، ولا استطاع أن ينفع نفسه بنفسه خردلة، لأن قلبه وإن كان جارحته فهو خزائنه وله فيه ما لا يعلم هو، فهو لا يطلع على ما فيه كما قال معجبا لمن جهله وأضله - اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا، فكيف به أن يملك ما فيه فيصرفه بما يجب. وقد قال صلى الله عليه وسلم سبحان مصرف القلوب. وقد خاطب الله تعالى سيد البشر وأمره أن يخبر فقال قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله. ثم قال بعد ذلك قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا. قل إني لن يجيرنى من الله أحد وإن أجد من بونه ملتعدا.

وإذا كان المالك عزيزا جبارا وكان كل شيء بيده لم يوصل إلى ما عنده بقوة ولا حيلة، فليس الطريق إليه إلا الصدق والإخلاص والذل والافتقار. وقد حُجِبَ العقل المكيد عن النظر إلى المبدئ المعيد، بما أظهر له من صورته وحركته، فستره عن الأول المصور ومن القابض المحرك، فادعى عن نظره إلى حركته وسكونه التى هى حجة له عن المحرك، لغيب ادعاء الحركة والسكون بنفسه، لوقوف نظره على نفسه، إذ كان مشهوداً وعمى عن النظر إلى الشاهد المحرك المُسَكَّن لُبْعَد مقامه، لأنه غيب من وراء الحركة، والغيب لا يُشْهَدُ إلا بغيب وهو اليقين، كما لا تُدْرِك الشهادة إلا بشهادة وهى العين، فمن عمى بصره لم ير من الملك شيئا، كذلك من حُجِبَ قلبه لم ير من الملك شيئا، فلمنم اليقين عمى عن المشاهدة، وإيقاع الحجة والحجاب أدرك بالمعقول الشهادة. ولو كان من أولى البصائر لاعتبر الحركة الغيبية بالتحرك المشاهد، فكما أن الحركة غيب فى الجسم ظهر عنها المتحرك فأنظر سبحانه المتحرك وأخفى الحركة فيه، وأظهر الصنعة وأخفى الصنوع فيها لتفصيل حكمته. كذلك الصانع نو الصنعة الأول، والحاكم الأعلى نو الحكمة الأغلب، غيَّبَ عن الحركة التى أخفاها هو من ورائها بلطائف القدرة، فشهد المعقول ما أشهدهما أظهر له، ووجه به لأنه معقول عليه محدود له، وعمى عما غيَّبَ عنه لفقد اليقين منه، فعندهما ادعى الحركة والسكون للشاهد فحجبه ذلك عن الشهيد، وشهد الموحَّد بشهادة التوحيد فوجد لما كَشَفَ له الملكوت بنور اليقين فأقرده. وقد قال بعض العارفين من نَظَرَ فى توحيدِهِ إلى عقله لم يُنْجِه توحيدِهِ من النار، ومن كان توحيدِهِ فى الدنيا مُعْلَقاً بمعقوله لم يحمل توحيدِهِ معه إلى اليقين. أَحْسَبُ أن هذا إيمان الذى يقال أخرجوا من النار من كان فى قلبه وزن مثقال من إيمان، فما زاد على هذا المقدار فهو متصل باليقين وهو

مؤيد بالروح، يمدده روح التأييد فلا ينطفى فهو المزخرج عن النار. وقد قال بعض علمائنا من ظنّ أنه يصل إلى الله تعالى قطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكلّ إلى نفسه.

ثم إن الخلق محجوبون بعد هذا الحجاب بثلاثة حجب بعضها أكثف من بعض، أحدها أواسط وأسباب معترضة، وشهوات جاذبة، وعادات راجعة صادرة، فالأسباب توقفهم عليها، والشهوات تجذبهم إليها، والعادات تردهم فيها، فإى هذه الحجب ظهر فى القلب، وبعضها أشد عليه من بعض، فهو مكان للعدوّ أوسع من مكان، فتمكّن سلطانه على قدر سعة مكانه، فقويت النفس بتزيين العدوّ وسوّكت بتأميلها، فملكك العبد ملكا أشد من ملك، فإذا ملكك النفس العبد كان مملوكها وأسيرها وكانت بالهوى أميرة، فاستهواه الشيطان حينئذ بالفواية والإضلال، واستحوذ عليه بمعانى المشاركة فى الأولاد والأموال، فشفغله بذلك عن الله سبحانه وتعالى، وأنساه ذكر الله عز وجل. وهذا هو الاقتران الذى نمّ الله تعالى فى قوله ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وهو فوق النزغ والهمز والخطر بعد الهمة، وهو خطور العدوّ على القلب بالوسوسة، يزين الهمة، ويملى للعبد ويرجيه، ويفسح له فى أمه ويمنيه التوبة حتى تهون عليه المعصية، ويعددها بالمغفرة حتى يُجرئه على الخطيئة، وهذا هو الوعد بالغرور، ويعدده الهلاك والثبور. كما قال يعدمهم، أى التوبة، ويمنيهم المغفرة، وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا. هذا كله تصديق ظن العدو بالعبد، واتّباع العبد له بالهوى عن مقام البعد، وكشف لعلم الله بإظهار الحكم وإنفاذ المشيئة، وهو الابتلاء بالأسباب، فصار العدو سببا لقوله تعالى وأقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. ثم أحكمّ ذلك بسابق علمه فقال وما كان له عليهم من سلطان، يعنى بحوله وقوته، ويقهره ومشيئته، إلا لنعلم بالآخرة ممن هو منها فى شك، أى لنرى، وقيل لنعلم العلم الذى يجازى عليه بالثواب والعقاب، وقيل لنختبر ونكشف، وقيل لنعلم المؤمنين ذلك فيستبين لهم، ويعلم من عمل تلك الأعمال التى ظهرت منه فتوقع عليه بذلك الحجة ويتبين له كذبه. كما قال فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين، فعلى هذه المعانى مجاز كل ما فى كتاب الله عز وجل من قوله لنعلم وحتى نعلم، إذ كان علمه تعالى قد سبق المعلومات، وإذ كانت الأشياء عن علمه بعمله جاريات، فجعل تسليط العدوّ بسلطانه كشافاً وإظهاراً لما أخفاه من سابق علمه، كما جعل أفعال العباد الظاهرة كشافاً وإظهاراً لإرادته الباطنة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق العلم، وجفّ القلم، وقضى القضاء، وتمّ القدر بالسعادة من الله تعالى لأهل طاعته، وبالشقاء من الله تعالى لأهل معصيته.

ذكر تقسيم الخواطر وتفصيل أسماؤها

فأما تسمية جملة الخواطر فما وقع في القلب من عمل الخير فهو إلهام، وما وقع من عمل الشر فهو وسواس، وما وقع في القلب من المخاوف فهو الصعاس، وما كان من تقدير الخير وتأميله فهو نية، وما كان من تدبير الأمور المباحات وترجيها والطمع فيها فهو أمنية وأمل، وما كان من تذكرة الآخرة والوعد والوعيد فهو تذكُّر وتفكير، وما كان من معاينة الغيب بعين اليقين فهو مشاهدة، وما كان من تحدث النفس بمعاشها وتصريف أحوالها فهو همٌّ، وما كان من خواطر العادات ونوازع الشهوات فهو ألمٌ، ويسمى جميع ذلك خواطر، لأنه خَطور همة نفس، أو خَطور عدوٍّ بحسد، أو خَطورة ملكٍ بهمس.

ثم إن ترتيب الخواطر المنشأة من خزائن الغيب القاسحة في القلب على ستة معان، وهذه حدود الشيء المظهر، ثلاثة منها معفوة، وثلاثة منها مُطالب بها. فنول ذلك الهمة وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشيء العبد يجده العبد بالحس، كالبرقة فإن صرفها بالذِّكر امتّحت، وإن تركها بالغلظة كانت خَطورة، وهو خَطور العدو بالتزوين، وإن نفى الخاطر ذهب، وإن ولى عنه قوى فصار وسوسة، وهذا محادثة النفس للعدو وإصفاؤها إليه، وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله خنس العدو وصفت النفس. وهذه الثلاث معفوة برحمة الله تعالى، غير مؤاخذ بها العبد، وإن أمرج العبد النفس في محادثة العدو وطاولت النفس العدو بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة فصارت نية، فإن أبدل العبد هذه النية بنية خير فاستغفر منها وتاب، وإلا قويت فصارت هَلْدًا فإن حل هذا العقد بالتوبة وهو الإصرار، والأقوى فصار عزمًا وهو القصد.

وهذه الثلاثة من أعمال القلب، مأخوذ بها العبد ومسؤول عنها، فإن تدراكه الله تعالى بعد العزم وإلا تمكّن العزم فصار طلبًا وسعيًا، وأظهر العمل على الجوارح من خزائن الغيب والملكوت، فصار من أعمال الجسم في خزانة الملك والشهادة. فهذه الأعمال توجد من أعمال البرّ والإثم، فما كان منها من البرّ همة ونية وعزمًا كان محسوبًا للعبد في باب النيات، مكتوبًا له في ديوان الإرادة، له به حسنات. وما كان منها من الشرّ نيةً وعقدًا وعزمًا، فعلى العبد فيه مؤاخذه من باب أعمال القلوب ونيات السوء وعقود المعاصي، وليس شئً مجانس للعدو مؤاخ له إلا النفس، جمع الله تعالى بينهما في الوسوسة بقوله الوسواس الخناس، وقوله ونعلم ما توسوس به نفسه. وكل شئ خلقه الله تعالى فله مثلٌ وضد، فمثل النفس الشيطان وضدهما الروح. ثم إن أعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم في الأجر والوزر معًا، إلا ما

لا يتأتى أن يعمل بظاهر الجسم من شهادة التوحيد، أو وجود شك أو كفر، أو اعتقاد بدعة.

باب آخر من البيان والتفصيل

فأما ما كان من لائح يلوح في القلب من معصية ثم يتقلب فلا يلبث فهذا نزغ من قبيل العدو، وما كان في القلب من هوى ثابت أو حال مزعج دائم لا يث فهو من قبل النفس الأمارة بطبعها أو مطالبة منها بسوء عاداتها، وما ورد على العبد من همة بخطيئة ووجد العبد فيها كراهتها فالورود من قبل العدو والكراهة من قبل الإيمان، وما وجده العبد وجداً بهوى أو معصية ثم ورد عليه المنع من ذلك فالوجد من النفس والوارد بالمنع من الملك، وما وجده العبد من فكر في عاقبة الدنيا أو تدبير الحال ونظر إلى معهود فهذا من قبل العقل، وما وجد من خوف أو حياء أو وُدع أو زهد، أو من شأن الآخرة، فهذا عن الإيمان، وما شهدته القلب من تعظيم أو هيبة أو إجلال أو تُقرب، فهذا من اليقين، وهو من مزيد الإيمان. وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، كما قال صاحب الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمؤدبك منك، وإنما هذا تفصيل الحدود وإظهار المكان وإحكام العلم، كما قال تعالى وكل شئ فصلنا تفصيلاً، وقال قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وليس في التوحيد ولا في المشاهدة تفكراً، ولا في الإشارة عيان، ولا في القدرة ترتيب، ولكن لا بد من علم التفصيل وهو التفرقة بلسان الشرع عن عين الجمع، لإظهار الطرق واستتارة السبل وتطريق السالكين وترتيب العالمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، والله غالب على أمره.

وقد فصل بعض العلماء أعمال العباد وفرق بين الأمر والإرادة، فقال إن أعمال العباد لا تخلو من ثلاثة أنواع، فرض وفضل ومعصية، قال فنقول إن الفرض بأمر الله تعالى ومحبة الله ومشينة الله، تجتمع هذه المعاني الثلاثة في الفرائض. قال ونقول إن النفل لا بأمر الله، لأنه لم يوجبه ولم يعاقب على تركه، ولكن بمحبة الله ومشينته جل وعلا، أى لأنه شرعه ونَدب إليه، فقال ونقول إن المعصية لا بأمر الله لأنه لم يُشرعها على السنت المرسلين، ولا بمحبة الله لأنه قد كرهها إذ لم يأمر بها ولم يندب إليها، ولكن بمشينة الله جلت عظمتها أن لا يخرج شئ من إرادته كما لم يخرج شئ من علمه، والإرادة والمشينة اسمان بمعنى واحد، فقد دخل كل شئ فيها، كما دخل كل شئ في العلم، فالله سبحانه عالم بما أراه وقد سبق به علمه، كذلك هو مريد لما علمه. أظهرت إرادته سابق علمه وكشفت علم الغيب بظهور إرادته الشهادة، فهو عالم الغيب والشهادة، فالغيب علمه والشهادة معلومه، فكيف يخالف المعلوم العلم وهو إجراؤه. والإرادة نفذت العلم في معلومات الخلق وهذا فرض التوحيد، فخرجت النوافل عن الأمر،

وخرجت المعاصي عن المحبة في تفصيل الأحكام ، وتبين الحلال والحرام، ولم تخرج معصية عن مشيئة، وقد قال الله جل ثناؤه وكل صغير وكبير مستطير. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء بقضاء وقدر، حتى العجز والكيس، فنكر عرضين لطيفين هما سبب المنع والعتاء.

وقد فرّق عالمنا بين الأمر والإرادة فرقاً لطيفاً، فحدثني بعض أصحابنا أنه سئل عن قول الله عز وجل لما أمر إبليس بالسجود لآدم، أراد منه ذلك أم لا، فقال أرادته ولم يرد منه، يعني أرادته شرعاً وإظهاراً، وعليه إيجاباً، ولم يرد منه وقوعاً ولا كوناً، إذ لا يكون إلا ما أراد الله تعالى، إذ لو أراد كونه لكان، ولو أراد فعلاً لوقع، لقوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فلما لم يكن علمت أنه لم يردّه فقد كان الأمران معاً إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته بأن لا يسجد، فلم يقدر أن يمتنع من أن لا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع من أن يؤمن، فنكلك القول في نهيه لآدم صلى الله عليه وسلم عن أكل الشجرة أنه أراد الأكل منه ولم يردّه له، أي أرادته وقوعاً وكوناً لأنه قد وجد وكان، كقوله إذا أردناه أن نقول له كُن فيكون، فلما كان علمت أنه أراد ولم يردّه شرعاً ولا أمراً، لأنه لم يأمره به، ولا شرّعه له، فقد كان الأمران جميعاً إرادته، أن يكون العبد مكلفاً مأموراً، وإرادته الأكل منه، لأنه قد كان. وكذلك القول في كل ما أمر به وأراده، أنه أراد الأمر والنهي لهم ليكونوا مكلفين متعبدين، ولم يرد ممن لم يكن منه الائتمار والانتهاز، لأنه قال تعالى إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كُن فيكون، فإخباره إذا أراد شيئاً كونه، كما أنه إذا كَوّن شيئاً فقد أرادته بدلالة كونه، فلما لم يكن الأمر من العاصين علمنا أنه لم يردّه، إذ لو أرادته كان. ولما كان النهي من المأمورين علمنا أنه أراد كونه إذ لو لم يردّه لم يكن، فصارت كون الشيء دليلاً على إرادته. وقد وقعت الإرادة بالأمر والنهي، فكان الكل مأمورين منتهين، ولم يقع الفعل من الكل، لأنه لم يرد وقوعه، إذ لو أرادته كان، وهذا أصل الابتلاء وإرادة ظهور البلاء، يأمر الله تعالى بالشيء ويريد كونه، وقد أراد الأمر به فحسب، وينهى عن الشيء ويريد كونه، وقد أراد النهي عنه فقط. وقد كان عالمنا أبو الحسن رحمه الله عليه يتكلم في علم الأمر والخير، وفي الابتلاء والقهر، بمعنى لا يهتدى إليها اليوم، ولا يسأل عنها أحد، أي يظهر الأمر بالترك، ويظهر النهي بالفعل، ويظهر الأحكام لوقوع البلاء، ويظهر الجوارح بالجبر على إرادته للابتلاء. وقد فرّق الحسن البصري رحمه الله قبله وهو إمامنا في هذا العلم، بين التعذيب على جريان العلم ومخالفة الأمر، لمأبلفه أن عمرو ابن عبيد وهو إمام المعتزلة، وإليه نُسبوا لما احتزل عن الحسن البصري بعد أن صحبه ولم يختم له بصحبته، بلّفه أنه يقول إن الله لا يقضى بالشيء ثم يعذب عليه، فقال له وملك إن الله عز وجل لا يعذب على جريان حكمه، وإنما يعذب على مخالفة أمره، وتفسير ذلك أن ما حكمه

الله تعالى منفردا به لم يجعل فيه أمراً ولا نهياً لا يعذب عليه، لأنه لم يجعل للعبد مدخلا فيه بشهوة ولا فعل، وإن ما قضاه على العبد مما أدخله فيه بقصده وشهوته عذب عليه، وهذا من شوم النفس وتكدير الخلق، أنها إذا أدخلت في شيء انقلب عليها شره. والامة مجتمعة على قول ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. واجتمعت على قول لاهول ولا قوة إلا بالله، فهذا عام في كل شيء ليس في بعض الأشياء دون بعض. والحول في اللغة هو الحركة، والعرب تقول للشخص يبسومن بعيد ويظن أنه إنسان أو شجرة أو صخرة، انظروا إليه فإن كان يحول فهو إنسان، أى يتحرك. والقوة هو الثبات بعد الحركة، وهو أول الصبر، حتى يظهر الفعل بقوة الله تعالى. وقد روينا في تفسير ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله. وهذا التفصيل في هذه المعاني من الأحكام هو ظاهر العلم، وفرض القدر، وفحوى التنزيل والشرع، والجبر للملك الجبار يجبر خلقه على ما شاء، كما خلقهم لما شاء، ويردّهم إلى ما شاء، كما ينشئهم فيما يشاء، فالحكم لله العلى الكبير، الواحد القهار، يقهر عباده كيف شاء، ويجرى عليهم ما يشاء، له الحجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدر النافذة، والمشيئة السابقة، بوصف الربوبية، وبحكم الجبرية، وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد، طوعا وكرها، بوصف العبودية، وبحق الملكة، إن كان الله يريد أن يفويكم هو ريكم، إن تعذبهم فإنهم عبادك، ولو شاء لهداكم أجمعين، لله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الحادس والثلاثون

فيه كتاب العلم وتفصيله ووصاف العلماء، وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشف طرق العلماء من السلف الصالح، وذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين في العلم، والفرق بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وفضل أهل المعرفة على علماء الظاهر، وذكر علماء السوء الأكلين بعلومهم الدنيا، ووصف العلم وطريق التعليم، وذم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام، وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، وبيان فضل الإيمان واليقين على سائر العلوم، والتحذير من الرأى

معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، وفي الحديث الآخر اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه، بأن يعلم